عتبة رخاميَّة باردة

قاطعـه الرنين المزعج المتصل لجرس باب الشـَّقة، انتفض وهبّ وهو يلهث. مسح عرق وجهه بيده، ومسح كفَّه كله في الفانلة الداخليَّة الواسعة وهو يمسـح بها رقبته وأعلى صدره. نظر لها متسـائلًا وهي تضمُّ قدميها لتندس تحت الغطاء.

أمسك هاتفه الموضوع بجانب السرير ليرى الساعة، كان الوقت متأخرًا. لا زيـارات متوقعة، بل لا زيارات من الأسـاس. نادرًا ما يزورهم أحد، ولو فعل لن يكون في وقتٍ متأخر كهذا.

هبَّ من الفراش وهو يلهثُ، نظَر حوله ليلتقط بوكسره الكبير ويرتديه على عجل، اتجه نحو باب الغرفة المغلق وفتحه، خرج للممرِّ الصغير المفضي للصالة، أضاء النور ليجد وجه ابنه يخرج من الغرفة المجاورة، تركه واتجه

مترنحًا لباب الشـقة، نظر من العين السحريَّة فواجهه السواد، ضغط على زر نور السلم ونظر ثانية؛ لكن لم يكن هناك أحد. فتح الباب بحذر وخطا على الأرض الباردة، شعر بحصى صغيرة مدببة توخز قدميه، نظر حوله. فلم يجد أيَّ أحد. عاد للداخل ووجهه محتقن. ظلَّ متوقفًا قليلًا أمام الباب المغلـق. كانت زوجته قد ارتدتْ ملابسـها وخرجتْ وراءه. نظر لها دون كلام وهو يهزُّ رأسه.

«مين؟» واصل هزَّ رأسه وهو يقول لها بصوت مبحوح غاضب: «مافيش حد!». نظرتْ له بتعجب ولم تنطق، اسـتدارتْ لتعـود لغرفتها فوجدَتْ أولادهما قد اسـتيقظوا وخرجوا أمام الغرفـة. اتجَهتْ إليهم وهي تقول: «مافيش حاجة.. ارجعوا ناموا». اتجهتْ معهم لغرفتهم، أدخلتْهم ونظرَتْ لهم عبر الباب نصف المفتوح قليلًا قبل أن تغلقَهُ خلفها.

كان زوجها قد عاد للغرفة. وجلس على طرف السرير. دخلَتْ وجلسَتْ بجوارِه وهي تربتُ على كتفه وتبتسـم، فنظر لهـا ولان وجهُهُ فجأةً وهو يضحكُ حتى دمعَتْ عيناه. خلعَتْ ما كانتْ ترتديه على عجل وصعدَتْ للسرير. ظلَّ هو جالسًـا مكانه قليلًا قبـل أن يلتفتَ إليها ويصَّعد ليتمدد جوارها مستندًا بظهره بوضع قائم. أمسك بكفِّها المستكين بجواره، وهو يحاول أن يتناسى ما حدث.

كان القلـق يتسربُ إليه مع كلِّ نفس. من يصعدُ للطابق الأخير ويرنُّ جـرس الباب في مثل هـذا التوقيت ويختفي بعدها؟! كانـتْ العمارةُ على الدوام هادئةً، قليلة السكان. ولا مجال لمثل هذه الأمور، فاليافطة النحاسيَّة

الصغيرة تزيِّنُ باب الشقَّة من الخارج باسمه. انتفض عندما وضعتْ زوجته كفَّها على صدره. كانتْ رأسها مستريحة على الوسادة جانبه وشعرها متناثر ناعم. أصابه فتورٌ وضيق. لم يكدْ يبدأ معها حتى قاطعه ذلك الرنين. كان الوضع مثاليًا؛ أولاده نائمون، وغدًا عطلة من عمله، وكانت توحشه، لم يفعلها معها منذ أيام لا يذكر عددها. العمل والإجهاد وضيق الوقت والفكر المشغول دومًا.

ربتَ على كتفِها ببطءٍ وهو يعتدل لينام جوارها، فهمتْ ما قصده فأغمضَتْ عينيها محاولةً الغياب والنوم وهي تدير رأسها لتنظر للناحية الأخرى. ظلَّ هو محدقًا في السقف المظلم إلى أن غلبه النوم.

***

جاءَهُ اتصالٌ من أخيه عصرًا. صوته المرح يخبره بأنَّه سيذهب للنادي هو وأولاده، ويريد أخذ أولاده معه أيضًا ليلعب الأطفال مع بعضهم. صمت مُحرجًا وحاول الاعتذار لكن أخاه أصرَّ. قال له بأنَّه سيمرُّ عليه ليأخذهم معه، سيكون بالسيارة أسفل المنزل بعد صلاة المغرب، شكره وهو ينظر لزوجته جانبه نظرة ذات مغزى ويبتسم.

في الموعد سمع هاتفه يرنُّ. كان أخوه قد وصل، هبَّ أولاده من أماكنهم بسرعة وهم يجرون لباب الشقة. أوصاهم بالهدوء والأدب وأن يسمعوا كلام عمِّهم. نزلوا على السلم يتقافزون، ظلَّ واقفًا إلى أن غابوا عن عينيه فاتجه للبلكونة لينظر إليهم ويشير لأخيه ملوِّحًا. ظلَّ يتابع السيارة إلى أن غابتْ في آخر الشارع.

استدار لينظر لزوجته فلم يجدْها خلفه، اتجه لغرفتهما، كانتْ مضاءةً بأباجورة خافتة وزوجته مستلقية على السرير تبتسم. نظر لما ترتديه وشعر بحرارته تتصاعد، اقترب منها فتقلبتْ ونامتْ على بطنها وهي تدير رأسها للجانب الآخر. كانت شهيةً لم تفقد طزاجتها أبدًا. صعد على الفراش مادًّا يده ليتحسس شعرها المتناثر فابتعدتْ في دلال، شعر بالسخونة تجتاحه. كان يريحه عدم وجود الأولاد بالمنزل. لا يحبُّ المقاطعة في هذا. وهم غالبًا ما يطرقون الباب ما أن يُغلق.

كان مرتاحًا، شاعرًا بإثارة تتصاعد. اقترب منها أكثر ليتصاعد لأنفه عطرها الخافت الذي يحبُّه. واصلت هي تدللها وابتعادها، فاقترب ليلتصق بها ويشعر بدفء جسدها. وتشعر بانتصابه الساخن. بدأ سريعًا، لم يتحمل الانتظار. ما أن استقر بين فخذيها حتى دوَّى جرس الباب الطويل المتقطِّع.

انتفض وهو يتراجع للوراء لاهثًا، نظر لها ولحاجبيها المعقودين ولم يدرِ ماذا يفعل! فكر في تجاهل الجرس؛ لكنه فكر بأن ربما أولاده عادوا لأيِّ سبب. قام من مكانه بضيقٍ شديد، لتندس هي أيضًا تحت الغطاء المتناثر أسفلها. تناول بوكسره وارتداه على عجل شاعرًا بفتور وارتخاء وهو يتجه لباب الغرفة، لم يكن مغلقًا فخرج للصالة المضاءة بأضواء الغروب الخافت وفتح باب الشقة سريعًا دون أن ينظر من العين السحرية متوقعًا أولاده بالخارج. كان الفراغ هو ما واجهه. لم يكن هناك أحد.

خرج بحذر لينظر عبر السلم للطوابق السفلية فلم يجد أحدًا. ظل واقفًا مكانه شاعرًا بالبرودة تتسرب من الأرض الرخامية تحته لجسده كله.

سبَّ بعصبية مكتومة، وقام بصفع الباب خلفه. عاد للداخل ليجد زوجته خرجـت على صوت الباب المُغلق بعنف. «تاني؟» نظر لها ولم يتكلم. عاد فجأة لباب الشقة مسرعًا، وفتحه بسرعة ليواجه السلم الخالي. ظلَّ متوقفًا ثوانٍ قبل أن يغلقه من جديد بعنف.

اتجـه لأول مقعد بالصالة ليجلس عليه. كان الظلام قد حلَّ، وأضواء الشارع هي فقط ما تضيء المكان حوله. ظلَّ جالسًا عاجزًا عن التفكير أو فهـم ما يحدث. للمرَّة الثانية يحدث ما حـدث؛ ما أن يبدأ معها حتى يرنَّ جرس الباب دون وجود أحد بالخارج، كأنَّ أحدهم يراه ويتلصص عليه. هبَّ مسرعًا مارًا من جوار زوجته المتوقفة جانب الكرسي. اتجه لغرفته ليتأكد من غلق شباك الغرفة، وجده مغلقًا، اقترب منه محاولًا النظر عبره فلم يرَ شـيئًا. كان ظلام الغرفة يحجب رؤية الخـارج. كان يفكر بأنَّها ربَّما صدفةٌ تتكرر للمرَّة الثانية. متحيرًا مشوشًا اتجه ليجلس على طرف الفراش.

أزعجه جدًا الشـعور بأنَّـه مُراقب. الأدهى أنه مُراقـب في هذا الأمر بالـذات دون أيِّ فعلٍ آخر يفعله طوال اليوم بالبيت. عادتْ زوجته دون أن تجد ما تقوله أيضًا. أضاءتْ النور وقامتْ بشدِّ الستارة الكبيرة لتغطي النافذة المغلقة، ثمَّ عادتْ لتُطفئ النور. صعدتْ للفراش لتجلس مستندةً للوراء وهي تضمُّ سـاقيها لصدرها وتحتضنهـما بذراعيها، تمدد بجوارها موليًا إياها ظهره محدقًا في الفراغ أمامه.

***

حاول تناسي الأمر لكنَّه لم يتمكن، ظلَّ يلحُّ في باله طوال الوقت. فكرة

أنَّه مراقبٌ كانت تطنُّ في عقله بلا هوادة. كان مشـتتًا في العمل، وعندما يعود للبيت يظلُّ سـاهمًا، حريصًا طوال الوقت على إغلاق النوافذ كلِّها. يظلُّ منشغلًا بلا شيء حتى يدخل للفراش مباشرة وينام دون كلام.

زوجتـه كانت تتكلم معه طوال الوقت. تحكي عن أي شيء. يظلُّ هو ناظرًا لها دون أن يركز فيما تقول. نظرته معلقة بوجهها دون كلام. لم تفتح معه الموضوع، لا تدري ما رد فعله. ربَّما يثور ويصيح، وربما يصاب بهواجس أكثر مما في رأسـه. تعاملتْ مع الموضوع بهدوء وحـذر. وكلما أتيحتْ لها الفرصـة كانت ترتدي ما يروقه وتقترب منه في الفراش؛ فيتراجع بفتور، ويهمهم بما لا تسـمعه. لم تحـاول أن تتكلم أو تطلب. فقـط تنظر له بلوم مكتـوم. يتحجج أحيانًا بالإرهاق والتعب. وأحيانًا كثيرة بنفس الهمهمةً غير المفهومة.

لم يتكرر موضوع الجرس ثانية، فقط عندما كان يرنُّ في منتصف اليوم ينتفـض ويسرع عدوًا للبـاب فيجد أنه أخوه، أو أمهـا. لا شيء غريب، ولا أحـد غير مألوف. كثـيرًا ما كان يتجه وحده بحذر نحو باب الشـقة ويقوم بفتحه فجأةً. يخرج للسلم حافي القدمين لينظر حوله ثم يعود ثانية للداخل. أصابها القلق على حالته التي تزيد وتنمو. لا تدري ما في رأسه، لكنَّها أصبحتْ تقلق وتنزوي داخل نفسـها. لم تحاول معه مجددًا، وهو لم يقترب منها كأنَّما ينتظر رنين جرس الباب كل هذا الوقت.

فكَّرتْ في شيء طرأ على ذهنها فجأة، انتظرت لتختار وقتًا مناسبًا لتخبره؛ في ذلك اليوم نام أولادهما مبكرًا. كان هو يعبث بأيِّ شيءٍ بالخارج. أغلقتْ

شبَّاك الحجرة وقامتْ بشدِّ الستائر جيدًا أمامها. ارتدتْ ما يحبُّه ووضعتْ عطرها الذي يفضله، تكوَّرتْ في الفراش دون أن تنادي عليه إلى أن صمت صوت التليفزيون بالصالة، وسمعتْ مفتاح النور بالصالة يُغلق، ورأت الظلام يهبط أمام باب الغرفة، فاعتدلتْ مكانها سريعًا.

مـرَّتْ ثوانٍ لتراه يدفع الباب برفق ليدخل، تسـمَّر مكانه عندما رآها هكذا، ابتسـمتْ، فبادلها الابتسـامة المشـتتة الحذرة. مالتْ برأسها ناحية اليمين وابتسـامتها الدافئة تتسع. ظلَّ مكانه قليلًا قبل أن يدخل ليجلس أمامها على طرف الفراش. أمسـكتْ بكفِّه لتجـده باردًا، متعرقًا. ضمَّتْ كفَّـه إليها بقوَّة وهي تقـترب منه. ظلَّ صامتًا محاولًا البحث عن أيِّ شيءٍ يقوله؛ لكنَّه لم يجد. ينظر إليها ويتأملها كلَّها بعينيه، صدرها المفتوح، المتدلي نصفه للخارج، وعطرها المتسلل لأنفه بهدوء ورغبة. كانت توحشه؛ ربَّما كان هذا سر عصبيته المفرطة في الأيام الطويلة الفائتة.

شعر بالدفء والحرارة تسري في جسده ببطء، وهي تواصل الاقتراب منه. ربتتْ على كتفه، قبل أن تقول: «إيه رأيك تفصل جرس الباب؟»، كانت مُقتضبة مُحددة فيما تقوله. بدا أنه لم يسمعها قبل أن يحاول الابتسام وهو يهزُّ رأسـه بلا معنى. «خلينا نجرب المرة دي». بصوتها الهامس شبه المبحوح، وهي تقترب برأسها من رأسه. مررتْ كفَّها على رأسه من الخلف بنعومة، فقـام دون اعتراض أو تفكير اتجه للخارج، وقام بإنزال سـكينة الكهرباء الخاصة بنصف الشقَّة الخارجي، عاد شاعرًا ببعض الارتياح والإثارة.

كانتْ ابتسـامتها تتسع وهي تمدُّ له يدها ليقترب منها ويغيبا في حضنٍ

ساخن. كان متمهلًا هذه المرة كأنَّما يودُّ ألا يحدث؛ على الرغم من انتعاظه، وإثارتـه. ترك عقله يهدأ ويغيـب، لم يحاول التفكير، اقترب منها بشـوق وحرارة، تحسس جلدها الناعم الجميل.

عندما رنَّ جرس الباب انتفضا سويًّا. تراجع هو للوراء سريعًا، وقفز مـن على الفراش، ليقف مترنحًا في منتصـف الحجرة أمام السرير المبعثر، يلهث مبللًا بالعرق. ظلَّتْ هي مكانها لم تتحرك، ولم تدخل أسفل الغطاء، ولم تُغلق حتى سـاقيها. تحرك هو لباب الغرفـة بآلية قبل أن يتوقف فجأة شـاعرًا ببرودة رخامية تلسـع باطن قدميه. ينظر بتشتت أسفل منه فيرى السجادة الصغيرة مكانها. يرفع عينيه للفراغ ويعود للفراش ثانية، يجلس عليه، قبل أن يسـتلقي مُعطيًا ظهـره لزوجته، ونظره معلَّقٌ بالظلام الذي يتسع أمامه.